التي قامت في مراكش واستولت على افريقيا والاندلس . (والثالثة) دولة الموحدين التي اسقطتها وحلت محلها . وكل هذه قوات قامت ثم سقطت وذهبت سدى دوان يُنتفع بها بينما كانت امم الافرنج في اثناء ذلك تتكون وتتجمع تحت سلطة امرائهم ورؤسائهم لينشئوا بعد ذلك امماً مستقلة مختلفة . ولم تكن تدري تلك الدول التي كانت تتزاحم وتتخاذل على ابواب اوربا ان مستقبل الشرق والغرب والعالم كله كان يومئذ في ايديها

الفيلسوف اوغست كونت

(مؤسس الفلسفة الحسية وواضع ديانة الانسانية والعلم)

ترجمته وذكر مبادئه بمناسبة وفاة تلميذه وخلفه في رئاسة ديانة الانسانية في الشهر الماضي في باريز

اذا ذُكر نوابغ القرن التاسع عشر فان الفيلسوف اوغست كونت يُذكر في مقدمتهم . وقد رأينا ان ننشر في هذا الجزء ترجمته وشيئاً من فلسفته بمناسبة وفاة تلميذه وخلفه بطرس لافيت « رئيس ديانة الانسانية » فنقول

ترجمته ولد اوغست كونت في مونبيله (فرنسا) في سنة ١٧٩٨ وقد تلقى دروسه في مدرسة الرياضيات ولكنه لم يتمها فخرج وانصب على الدرس لنفسه . وكان في اثناء ذلك يرتزق من التدريس لانه كان فقيراً . ومن حسن حظه انه عرف في سنة ١٨١٩ سان سيمون الكاتب الفرنسوي المشهور فاتفقا على الاشتغال بالعلم والسياسة معاً . وكان سان سيمون محتاجاً اليه وهو محتاج الى سان سيمون لان سيمون كان ذا بصيرة في السياسة ولكنه كان قاصراً في العلم وكان اوغست كونت طويل الباع في العلم ولكنه قاصر في الامور السياسية . فكمل احدهما نقص الآخر

الاَّ ان كونت كان مطبوعاً على حب الاستقلال فلم يجد بداً من مفارقة سان سيمون الذي كان ينزل نفسه منه منزلة المتسلط الآمر . فاغتنم فرصة لذلك . وهي ان كونت كتب الجزء الثالث من كتاب « مبادىء اهل الصناعة » واتفق مع سيمون على ان ينشره باسم مؤلفه . فذهب سيمون ونشره دون ان يذكر مؤلفه فكان ذلك عذر كونت في مفارقته

وبعد ذلك انصرف كونت الى التأليف والتدريس في منزله فكان نخبة الناس يقبلون على استماع خطبه العلمية . غير انه أُصيب بعد ثلاث خطب بتهيج في الدماغ خيف عليه

الجنون منه فنقل الى احد المستشفيات واقام فيه ٧ اشهر بلا فائدة . وكانت له زوجة كريمة عاقلة فاعادته الى منزله ولبثت تداريه وتسكن اضطرابه باللطف والمجاملة حتى هدأ اضطرابه وعادت اليه قواه العقلية . وهنا لا بدّ ان يذكر القارىء رأي العلامة لمبروزو الايطالي الذي مقتضاه ان سبب نبوغ اعاظم البشر خلل يطرأ على ادمغتهم وعقولهم فيرفعها عن عقول البشر الاعتيادية . وبذلك يكون نوابغ البشر الذين رقوا الهيئة الاجتماعية انصاف مجانين . والعياذ بالله من هذا الرأي الغريب .

وبعد شفاء كونت بدأت مؤلفاته العظيمة التي كانت اساسًا للعلم الحسي والسيولوجيا . فصارت له شهرة واسعة . الاّ ان اخلاقه الغريبة كانت تبعد عنه كل انصاره . فانه كان يسيء في معاملة الجميع لرؤيته انهم لا يعطونه حقه ولا يقدرونه قدره . فمن ذلك انه كان يطلب التدريس في احدى المدارس الكبرى فلما خلت وظيفة كبيرة في مدرسة الرياضيات كتب الى اصدقائه في الاكاذمية كتاباً يطالبهم فيه بتلك الوظيفة كحق له ويعنفهم لاعراضهم عنه ويطعن على مشاهير الرياضيين في عصره . فانتهى الامر برفض طلبه . ومن ذلك طعنه في احد كتبه على اراغو المشهور طعنًا جرح كبرياء اراغو الذي كان يومئذٍ في اوج الشهرة فسعى في عزله من وظيفة كانت له في مدرسة الرياضيات . وكان كلما تقدّم في نشر مذهبه الفلسفي وازداد تحققًا فيه واستيثاقًا من عظم عمله ازدادت اخلاقه شراسة وكبرياءً حتى لم يعد يقبل نصيحة ولا اشارة من احد . ولما رأت زوجته ذلك علمت استحالة الاتفاق معه فانفصلت عنه بهدوء ولكنها بعد الانفصال بقيت تراسله .

ولما كانت سنة ١٨٤٥ بدأ كونت يطبق فلسفته على السياسة . اي بدأ يدخل في حيز الفعل والتجربة النظريات التي ذكرها في فلسفته . فادّى به هذا الامر الى امور غريبة سنذكرها في موضعها . ولذلك يقولون ان هذا العام كان بدء نزوله عن جبل العظمة العلمية

ولما فقد كونت وظيفته الرسمية في مدارس الرياضيات فقدَ معها مورد رزقه ولكن بعض علماء انكلترا واغنيائها ارسلوا اليه مالاً طائلاً مساعدة له لان الانكليز اعجبوا بمواهبه . فطلب كونت ان تكون هذه المساعدة سنوية فرفضوا فحاصمهم كونت لرفضهم . فشرع حينئذٍ تلميذه العلامة ليتره المشهور في جمع مال طائل لاستاذه على سبيل الاكتتاب ليجعل له منه دخلاً سنوياً فاستمر ذلك اربع سنوات ولكن كونت رأى ان تلميذه ليتره لم يكن مطيعاً له الى الحدّ الذي يريده فحاصمه ايضاً وتولى هو نفسه رئاسة الاكتتاب ..

وقد كانت وفاة كونت بسرطان في معدته فجزع عليه تلامذته . ولا يزال بيته في

باريز (هيكلاً) يحج اليه تلامذته من جميع اقطار العالم

مؤلفاته وطريقة تاليفه كان لكونت في التأليف طريقة لم تكن لسواه بين جميع المؤلفين . فانه منذ شرع في كتابة مذهبه الفلسفي انقطع عن كل درس ولم يعد يقراء كتاباً لاحد من المؤلفين . وسبب ذلك انه قصد ان لا يكون لاحد تأثير على افكاره . ولقد كان ذلك حسناً قبل افراغه جعبته في مؤلفاته . ولكنه بعد افراغه جعبته جرّه الى الامور الصبيانية التي سنذكرها في ترجمته لانه فصله عن عالم العلم وجعله يتهوّر في التعاليم الرمزية التي مزج فيها الدين بالفلسفة . ومهما يكن في هذا الامر فانه كان دليلاً غريباً على عظيم ثقته بنفسه

اما كيفية كتابته مؤلفاته فانها كانت كما يلي : كان يفكر اولاً في الموضوع وينشىء في ذهنه جميع اجزائه وتفاصيله . ومتى فرغ منها كلها كان يقول ان كتابه قد تمّ . وحينئذ يتناول القلم ويبدأ بالكتابة بسرعة غريبة ثم يرسل الاوراق التي يكتبها الى المطبعة دون مراجعتها . وبعد ترتيب حروفها لا يصحح اغلاطها المطبعية الا مرة واحدة . وعند تصحيحها لا يغير شيئاً في كلامه

واما مؤلفاته فاهمها كلها « دروس في الفلسفة الحسية » وهو ستة اجزاء فيها كل فلسفته « واقوال فلسفية في العلم والعلماء » (واقوال في السلطة الروحية الجديدة) (وكتاب في مبادىء الهندسة) (وكتاب فلسفي في علم الهيئة العامي) (وكلام عن مجمل الفلسفة الحسية) وهو كتاب اختصر فيه فلسفته (ومذهب الفلسفة الحسية السياسي) وهو اربعة اجزاء وقد دعاها ايضاً : كتاباً في السيولوجيا يبحث في ديانة الانسانية (وكتاب مبادىء التعليم في الفلسفة الحسية) وهو في (ديانة الانسانية) يقابل (كتاب مبادىء التعليم المسيحي) للاولاد في الديانة المسيحية او اصول الشرع والقرآن الاولى في الديانة الاسلامية . ومنها كتب اخرى

مذهبه الفلسفي وقبل ان نذكر شيئاً عن مذهب اوغست كونت الفلسفي نقسم اعمال هذا الفيلسوف الى قسمين : فقسم كان عظيماً جليلاً لما كان له من التأثير على الحركة العلمية والسياسية في اوربا منذ ذلك الزمن الى اليوم . وقسم كان صغيراً — ومع احترامنا لتذكار الفيلسوف فاننا نقول انه كان مضحكاً . وقبل الوصول الى القسم الثاني نشرح القسم الاول

لما قام كونت وراى الفلسفة مبنية على النظريات والمجادلات العقيمة عدل عن هذه

الطريق وقام يدعو الى تاسيس الفلسفة على الامور المحسوسة . فقال اننا لا نبني فلسفتنا الا على ما نعرفه معرفة تامة . ولذلك لا نعرف للفلسفة اساساً غير (**الرياضيات وعلم الفلك والطبيعيات والكيمياء والبيولوجيا والسسيولوجيا**)

وكان مراده بذلك صرف افكار الفلاسفة عن البحث في (علة العلل وسبب الاسباب) لادخال العلم في دور (**النفع**) للبشر . وان قيل ان ذلك يضع حداً للعلم ويجعله مقيداً فكونت يجيب عن ذلك بان فلسفته لا غرض لها غير (**نفع الناس**) بترقية الانسانية اما معرفة مبداء العالم ومصيره فمن العبث الاشتغال به بقوانا العقلية . فبدلاً من ان تضيع الفلسفة وقتها الثمين في البحث في هذه المسائل يجب ان تحصر قواها في درس الامور المحسوسة واستخدام العناصر الطبيعية لنفع الانسانية اذ لا شيء حقيقي غير الانسانية

وهو يرى ان الانسانية قد آن لها ان تصل الى هذا الغرض وان فلسفته هذه دور من ادوارها . وايضاحاً لذلك يقول ان كل هيئة اجتماعية لها ثلاثة ادوار الاول دور الطفولية وهو الدور الذي تظن فيه نفسها محكومة بقوات غير منظورة كالآلهة والارواح والثاني دور الشباب وهو الدور الذي تكون فيه منصرفة الى ما وراء الطبيعة والعقل والحس والثالث الدور الحسي وهو دور الرجولية . بل ان الانسان نفسه يتقلب في عمره بين ادوار كهذه الادوار فانه في صباه يكون في الدور الاول وفي شبابه في الدور الثاني وفي كهولته في الثالث .

واعظم اكتشافات كونت في هذه الفلسفة اثباته الترتيب والعلاقة بين العلوم الطبيعية . قال المسيو رويسين الذي نعتمد عليه في تلخيص هذا المذهب : ان الرياضيات قد وُضعت اصولها منذ نشأتها في القرون الماضية وقد خطط كبلر وغاليله طريق علم الهيئة (الفلك) وخطط باكون وديكارت طريق الطبيعيات ولافوازيه طريق الكيمياء وبوفون وكوفيه ولينه وجفروى سان هيلير طريق البيولوجيا . واما أُوغوست كونت فانه وضع اساس السسيولوجيا (علم العمران) ورفعه الى مقام العلوم الطبيعية الثابتة . وذلك باكتشافه ما بين العلوم الطبيعية من الترتيب اي لزوم بعضها عن بعض لانها تنشا عنها واثباته انها كلها تنتهي الى غرض واحد وهو خدمة علم السسيولوجيا لترقية العمران في الارض وتحسين حالة الانسانية

وبناءً على ذلك يكون اساس فلسفة كونت علم السسيولوجيا اي علم اصلاح شأن البشر . وهو الذي وضع هذه الكلمة (السسيولوجيا) واودع فيها المعنى المصطلح عليه اليوم .

وتوصلاً الى ذلك الغرض جعل همه ايجاد (سلطة روحية) جديدة ليقرنها بالسلطة السياسية ويعهد اليها تدبير شؤون البشر . وهو يرى ان الكنيسة المسيحية قد صنعت صنعاً بديعاً بجمعها بين السلطة السياسية والسلطة الروحية في شخص واحد يتولى ادارة الامة . ولكنها بما انها فصلت بين العقل وبين الطبيعة في تلك السلطة فقد ادخلت بذلك في جوفها جراثيم الضعف والانحلال . وهذا الانحلال والانقسام لم يلبث ان ظهر بقيام المذاهب الفلسفية والمذهب البروتستنتي . فالمطلوب لتدبير شؤون البشر تدبيراً محكماً اقامة سلطة روحية توافق السلطات السياسية والامور الطبيعية . وليس هنالك سلطة روحية قوية غير سلطة العلماء . اذاً يجب ان تتألف لجنة من العلماء في كل الامم ليتولوا حكومة البشر بالروح وبالسياسة حكومة مبنية على الواجب . ويكون شعارهم هذه الكلمات « **محبة الناس لانها واجبة . وحفظ النظام والامن لانهما اساس الاجتماع . وتمهيد سبيل المدنية لانها غرض الانسانية** »

مذهبه الديني واليك القسم الثاني من مذهب كونت الذي اشرنا اليه في ما تقدم سمى كونت الانسانية (الذات الاعظم) واوجب في اكرامها ترقية شؤونها لا عبادتها . وسمى دينه الجديد (ديانة الانسانية) وهو يوجب الصلاة لا لانها واسطة لطلب شيء الانسان بل لانها عبارة عن اشتراك وتأمل في مصدر الكمال . ومن قوله : انما الصلاة حب وفكر اذا كانت بالروح والفكر فقط . ولكنها اذا كانت بالكلام ايضاً فهي حب وفكر وفعل . فكأنما الصلاة عبارة عن نموذج للحياة . وكأنما الحياة صلاة دائمة

ومعبد الانسانية يجب ان يقام في وسط حرش مقدس يجتمع فيه المؤمنون . وتكون فيه العبادة عمومية . ويوضع في صدره تمثال للانسانية يمثل امرأة تحمل طفلاً . وتخصص غرفة في المعبد بالنساء اللواتي امتزن في حياتهن باعمال جليلة و١٣ غرفة تحوى تماثيل ١٣ رجلاً وهم « **موسى وهوميروس وارسطو وارخميدس وقيصر والقديس بولس وشارلمان ودانت وغوتنبرج وشكسبير وديكارت وفردريك الثاني وبيشات** » . وقد غير كونت حساب الاشهر فجعل السنة ١٣ شهراً وسمى كل شهر باسم واحد من هؤلاء المشاهير وجعل في كل يوم من ايام السنة عيد رجل من الذين افادوا البشر . اما تعاليم هذا الدين الجديد الغريب فهي ترجع الى مبدأ واحد وهو (ان يحب الانسان الناس ويعيش من اجلهم) لانه جزء وهم كل وبذلك وضع كونت اصول الآداب والفضائل فوق اصول العمران (السيولوجيا)

ومن مبادىء هذا المذهب تقديس النساء لان المرأة في رأي كونت اطهر مخلوقات

الانسانية . وهي الرباط الحي الذي يربط الانسان بالهيئة الاجتماعية سواء كانت زوجة او اماً او ابنة . وقد وضع هذا الفيلسوف الغريب الاخلاق عبادة مخصصة بالنساء . ووضع مذهبه تحت حماية (القديسة كلوتيلد) وكلوتيلد هذه اسم امرأة عرفها كونت في سنة ١٨٤٥ واحبها حباً شديداً مع انه كان في السابعة والاربعين من عمره . . وهي تدعى كلوتيلد ديفو

فمن كل ذلك يظهر ان هذا الفيلسوف مزج فلسفته بكثير من الامور الصبيانية . على ان الفلاسفة ينظرون الى مذهبه الفلسفي لا الى مذهبه الديني . ويقولون عنه انه كان فيه شخصان : شخص عظيم وضع في الرياضيات والطبيعيات والسيولوجيا كتباً في غاية الاهمية حوّلت مجرى افكار البشر في الارض . وشخص وضع ذلك المذهب الديني بعد فراغ جعبته العلمية فصغّر به نفسه

خلفه الذي توفي اخيراً وقد اشتغلت جرائد اوربا منذ مدة بذكر كونت وفلسفته مرتين . الاولى حين اقامة تمثال له منذ بضعة اشهر . وقد خطب الجنرال اندري وزير الحرب في فرنسا في تلك الحفلة لانه من انصار الفلسفة الحسية . والمرة الثانية حين وفاة بطرس لافيت تلميذ كونت و(رئيس ديانة الانسانية) بعده . وقد احتفل بجنازته في ٢ موسى وهو يوم قورش (اي في اليوم الثاني من الشهر المسمى موسى والمخصص بقورش ملك فارس القديم) فجيء بالجثة الى (الهيكل) وهو البيت الذي توفي كونت فيه . وكان هذا البيت مزيناً بالرايات المختلفة دلالة على اشتراك الانسانية كلها في تشييع واحد منها . وكان العلم العثماني في جملتها . وبعد عرضها حملت الى المدفن حيث ابّنه بعض اكابر العلماء في جملتهم المسيو اناتول فرانس احد اعضاء الاكاذمية وخطيب اسود وهو وكيل هايتي السياسي في باريز كان ينوب عن الجنس الاسود في هذه الجنازة

وقد ابّنت الجرائد المسيو لافيت خلف استاذه كونت فقالت انه تصرف بمبادئ استاذه تصرفاً نبذ منها الامور الصغيرة وادخل فيها البشاشة واللطف فزاد في قوتها وانتشارها . وكتب المسيو غاستون ديشان المنتقد المشهور مقالة طويلة في جريدة الطان قال فيها ان جميع المؤلفين الذين قاموا بعد كونت قد استمدوا من مؤلفاته وآرائه في اوربا كلها حتى رنان وتين . ولذلك تجد الكتب والروايات مملوءة من روحه . وهذه المقالة طويلة لا محل لتلخيصها وانما نذكر منها غرض كونت كما صوّره هذا الكاتب . قال : كان غرضه مداواة داء العصر بوضع النظام العقلي والادبي مكان الفوضى الاشتراكية . وانشاء سلطة روحية جديدة توفق بين عناصر الامة وتوحد التعليم في مدارسها لتوحيد كلمتها . ومصالحة العقل والقلب . والعلم والحب .

التي فرقتها حالة العصر. واقامة دين بابه مفتوح لكل جديد ومع ذلك حافظ للتقليد . ويكون مستمداً تعليمه من حالة الاجتماع وغرضه ان ينال من الناس الاجماع

﴿ الفائدة ﴾ هذا ما رأينا نشره بشان اوغست كونت . وقد بقيت امور كثيرة لم نذكرها رغبة في الاختصار منها ارساله الى نقولا الاول امبراطور روسيا كتاباً يقترح عليه فيه ان يوحّد امم اوربا ويقبض على سلطتها السياسية ويعطيه سلطتها الروحية . وغني عن البيان ان هذا الكتاب بقي بلا جواب . ومنها تفصيل تاريخ انتشار مذهب كونت الديني والفلسفي في فرنسا وانكلترا واسوج والبرازيل حيث ادخله بنجامين كونستان وذكر جمعياته ومجلته التي تطبع في باريز وعنوانها « المجلة الغربية » ولكننا نلتزم الاختصار لضيق المقام ونختم هذا البحث بذكر الفائدة التي تنجم عنه وتؤخذ منه بقطع النظر عن الامور الصغيرة التي فيه كترك الفكرة الآلهية التي تحيي نفوس البشر وتقليد العبادات المادية

وهذه الفائدة هي تقديس الانسانية واحترام شخص الانسان احتراماً مطلقاً . ويدخل في ذلك مبدأ هو اسمى المبادىء التي وضعها البشر نعني مبدأ « كراهة سفك الدم البشري » الذي يقال فيه انه المبدأ العظيم الوحيد الذي تمتاز به المدنية الحديثة على جميع المدنيات القديمة . فقد كان دم الانسان في الزمن القديم رخيص الثمن وكان البشر عبارة عن انعام يُذبحون او يُحرقون بامر رؤسائهم لاصغر الاسباب سواء كانت دينية او سياسية . اما اليوم فقد صار الشخص مقدساً لانه جزء من الانسانية ولذلك صار همّ البشر منصرفاً الى الاتفاق على تدبير الطرق السلمية ليحملوا بعضهم بعضاً ويعيشوا بعضهم مع بعض بالفة ووئام بعد ان علموا انه من الجناية على الانسانية ومن المستحيل في شرعها استئثار بعضها بالحياة والارض دون بعض . ومن هنا نشأ ارتقاء حقيقي في حالة الانسانية . وهم يُرجعون الفضل في هذا الارتقاء الى الفلسفة الكونتية